النّموذج العامليّ في روايات بدريّة الشّحيّ: «الطّواف»، و«فيزياء 1»، و«كارما الذّئب»

اعداد

د/ مريم بنت سالم البادي

أستاذ الأدب والنقد الحديث المشارك بكلية العلوم والآداب

جامعة نزوى بسلطنة عمان

ملخّص:
يهتمّ هذا البحث بدارسة روايات الكاتبة بدريّة الشحيّ: «الطواف حيث الجمر»، و«فيزياء 1»، و«كارما الذئب: فيزياء 2» دراسة سردية سيميائية من خلال رصد البرنامج السّرديّ المنظّم لمسار الحكاية في هذه المدوّنة. سأنطلق من إشكال بارز سيُختبر في تحليل هذه الأعمال الثلاثة؛ هو إنّ روايات الشّحيّ منظّمة وفق برنامج سرديّ متماثل رغم أنّ عشر سنوات تفصل بين كلّ رواية وأُخرى من هذه الرّوايات الثّلاث؛ وهذا يعني أنّ المؤلّفة تكتب ضمن مشروعٍ منظّم، وتعالج قضايا تلحّ على النّظر فيها مرّة تلو الأخرى عبر تجربتها السّرديّة.
ويعدّ النّموذج العامليّ لگريماص أحد أبرز منجزات التّحليل السّيميائيّ للسّرد، وهو ينظر للبُنى السّرديّة بوصفها ملفوظات متتابعة من الحالات والتّحولات، منتظمة في علاقات، وموجّهة نحو غايات، تمثّل كلًّا منتجًا لدلالة الحكاية.
وعليه، سأتوسّل بما أتاحه تصوّر گريماص من إمكانات منهجيّة للنّظر في المدوّنة المشار إليها، وسأبحث تقاطبات العلاقة بين الذّات وجودًا، والموضوع ركنًا أساسًا لتشكيل برنامج السّرد إلى جانب مكوّنات الخطاطة السّرديّة الأُخرى.

الكلمات المفتاحية: سيميائيات سرديّة، نموذج عامليّ، خطاب سرديّ.

The Actantial Model in the Novels of Badria Al-Shihi: “AlTawaf”, “Phyzia 1”, and “Karma Altheab”.

Abstract:
This research is concerned with studying Badria Al-Shihi's novels, including: “Crossing Embers”, *(AlTawaf Haithu Aljamr)*, “Physics (1)” (*Phyzia 1)*, and “Karma of the Wolf: Physics (2)” *(Karma Altheab: Phyzia 2)* using a semiotic narrative approach, specifically Greimas's actantial model. The research arguments seek to explore the organized narrative program of the story in these works. I will start from a prominent question that will be tested in the analysis of these three works; that is, whether Badriyah Al-Shahy's novels are organized according to a symmetrical narrative program, despite a decade separating each novel from the others among these three novels. This implies that the author writes within an organized literary project, addressing issues that attract attention one after another through her narrative experience. Greimas's actantial model of narrative is considered one of the most significant achievements in semiotic narrative analysis. It views narrative structures as a sequence of states and transformations, organized in relationships and directed towards goals. Each element represents a product of the narrative's signification Therefore, I will employ this narrative theory to analyze the mentioned novels. I will explore the organized relationships among characters and themes, in shaping the narrative program, in addition to other components of narrative composition.

Keywords: Narrative semiotics, Actantial model, narrative discourse.

لمحة نظريّة:

انطلق ألجيرداس جوليان غريماص Algirdas Julian Greimas (1917-1992) في صياغته النّموذج العامليّ من نقد كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss (1908-2009) وظائف الحكاية الشّعبيّة الروسيّة عند فلادمير بروب Vladimir Propp (1895-1970) [1]. ويكمن جوهر الاختلاف بين وظائف بروب - التي حدّها بإحدى وثلاثين وظيفة- وبين نموذج غريماص في أسس أربعة؛ هي: (1) إن العناصر الثّابتة في الحكاية الشّعبيّة متمثّلة في الوظائف لا في الشّخصيّة، و(2) محدوديّة عدد الوظائف المضمّنة في الحكاية، و(3) تماثل تتابعها، و(4) انتماء بنية الحكاية العجيبة إلى نمط مجرّد واحد[2].

وقد اختزل النّموذج العامليّ ففي محاولته علمنة دراسة المعنى اختزل وظائفَ الحكاية في ستّة عوامل وجدها تنظّم عوالم السّرد وأفكاره وقيمه[3]؛ هي: الذّات، والموضوع، والمُرسِل والمرسَل إليه، والمساعد والمعارض، مركّزًا في هذا الاختزال على «أعمال» الشّخصيّة في السّرد، انطلاقًا من فكرة مفادها «إن استقراء المتخيَّل السردي يُبرِز أن الخطاب السردي يقوم على مجموعة من الأدوار العامليّة تتمظهر بواسطة فواعل بصفتها عناصر للخطاب»[4]؛ وعليه فإنّ العوامل ترتكز على عمل الشّخصيّة محورًا[5]، وعمل الشّخصيّة هو الآخر يمثّل علامة سيميائيّة عائمة، وانطلاقًا من هذا فهو «متغير ولا يتحدد إلا في علاقته بالسياق الذي يحيل عليه»[6]؛ ما يجعل السّياق عنصرًا رئيسًا في استنطاق البنى العلاماتيّة.

شكّلت لسانيّات لويس يامسليف Louis Hjelmslev (1899-1965) رافدًا آخر من روافد غريماص في بناء تصوّره العامليّ؛ لا سيّما في «مفهوم الصُّورة»[7]، فـ«إذا كان العامل يتسم بطبيعة تركيبية، فإنّ الفاعل يمتّ بالصلة أكثر إلى الدلالة، إنه مثل وحدة معجمية اسمية، يمكن أن تندرج في التركيب اللِّساني أو السردي لتشتغل»[8]، ويمكن للفاعل أن ينجز دورًا عامليًّا واحدًا أو أكثر، ولذا فالفاعل السّرديّ «ترهين وسيطي يحقق التعالق بين المستوين السردي والخطابي، بل إنه ينظِّم الانتقال من البنيات السردية إلى البنيات الخطابية»[9].

لم تكن طريقة تفكير غريماص في الحكاية على هذا النّحو بدعًا؛ فسيمياء الأدب باختلاف مساراتها المنهجيّة وتنويعاتها المفاهيميّة تنظرُ للنّصّ بوصفه حقلًا علاماتيًّا خِصبًا يمدّ جسورًا بين الدّرسين الأدبيّ واللّسانيّ بعديد روافدهما المستقاة من حقول الفلسفة والاجتماع والنّفس والمنطق وغيرها، وليس هذا إلا نتيجة

---

(1) فلادمير بروب، مورفولوجيا القصّة، تر. عبد الكريم حسن، وسميرة بن عمّو، دمشق، مطبوعات شراع، ط.1، 1996.

(2) نفسه، ص.-ص.38-40.

(3) Wang, Y., & Roberts, C. W. (2005). Actantial analysis: Greimas's structural approach to the analysis of self-narratives. *Narrative Inquiry*, *15*(1), 51-74.

(4) أ.ج. غريماس، سيميائيات السرد، ترجمة وتقديم. عبد المجيد نوسي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط.1، 2018، ص.21.

(5) يكتب الدكتور أحمد يوسف عن مشروع غريماص في تحليل الحكاية بأنه يمثل مشروعًا مهمًا يقع ضمن إطار مشروع السيمائيات في علمنة دراسة المعنى، ويمثل مشروع غريماص الذي بدأه في 1966: «فتحا فتحًا مبينا في تاريخ السيميائيات الحديثة. إن هذا المشروع مؤمن بالمنطلقات اللسانية لبناء المعرفة السيميائية بناءً علميا صارما أو هكذا أراد له الشيخ، وسار على دربه الأتباع ممن وصفوا بـ«مدرسة باريس»، ولا بد من الإشارة إلى أن الشيخ بدأ من حيث عجز بارت عن إنجازه، ودعا إليه ألا وهو بناء لسانيات للنص يكون بمقدورها تحقيق درجة عالية من النسقية التي اهتدى إليها فلاديمير ببروب بخصوص الانتقال من دراسة اللسان إلى دراسة الكلام». سيميائيات التواصل وفعالية الحوار، منشورات مختبر السيميائيات وتحليل الخطاب، جامعة وهران، ط.1، 2004، ص.35.

(6) فيليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة: سعيد بنگراد، تقديم: عبد الفتاح كيليطو، دار الحوار، سوريا، ط.1، 2013، ص.35.

(7) أ.ج. غريماس، سيميائيات السرد، سابق، ص.21.

(8) نفسه.

(9) نفسه، ص.23.

قيام الأدب على أساس استعمال نوعيّ للُّغة وإمكاناتها المتنوّعة من بُنى شكليّة، وأنساق دلاليّة، وآليات تأويليّة[10].

وتمثّل العلاقات المنظّمة لعوامل السّرد أساس مكوّنات البرنامج السّرديّ التي تُكسب الحكاية شكلًا منتظمًا بتأليفها بين الأقطاب العامليّة، ومن هنا ننطلق من تحليل العلاقات السّرديّة المؤلّفة للعوامل في مدوّنة الدّراسة، بعد تقديمها إلى القَارئ.

تقديم المُدوّنة:

في هذا الجزء سنتوقّف على مدوّنة التّحليل؛ ثلاثة روايات للكاتبة بدريّة الشّحيّ، عشر سنوات تفصل بين كلّ رواية وأخرى، مع ذلك ننطلق في هذه الورقة من افتراض أشرنا إليه هو إنّ برنامجًا سرديًّا متماثلًا يجمعُ هذه الأعمال، كما يجمعُها الموضوعُ وجملة من طرائق السّرد وتقنياته، وهي على كلٍّ مبنيّة وفق خطاطة سرديّة عامليّة متماثلة سنختبرها في هذا العمل.

أولًا: «الطّواف حيث الجمر».

توصف رواية «الطّواف حيث الجمر» (1999) لبدريّة الشحيّ أنّها باكورة الرّواية النّسائيّة العُمانيّة المتحقّقة فنيًّا. تبدأ الرّواية بحدثين جوهريّين يحرّكان الشّخصيّة الرّئيسة -«زهرة»- لمغادرة أسرتها والهروب إلى زنجبار؛ أوّلهما: زواج ابن عمها (سالم) من أفريقيّة وفضولها الشّديد لمعرفة ما يميّز هذه المرأة «السّوداء» -كما تقول- عنها، وثانيهما: شروع أهلها في تزويجها من ابن عمّها (عبد الله)، الثّري، الذي يصغرُها بحوالي عقدين من الزّمن ورفضها هذا الزّواج. وأمام وطأة الفضول، وهيمنة التّقاليد، وجبروت قرار الأهل لم تجد «زهرة» مخرجًا من واقعها إلّا الهروب.

انتهزت الشّخصيّة (زهرة) فرصة ذهابها برفقة عمّها ووالدها وأخيها من «الجبل الأخضر» إلى «نزوى» لشراء مستلزمات زواجها لتحقيق هدف الهروب، ورغم مغريات المال التي كان من المؤمّل أن تشتري رضاها للزّواج من «ابن عمها»، لكنّها صدمت الجميع بحدث هروبها إلى زنجبار.

واجهت الشّخصيّة سلسلة تحدّيات في طريق الهروب؛ وهي تحدّيات ذات صلة مباشرة بهويّة المجتمع الذي تصوّره الرّواية، وطريقة تفكيره. ورغم الخيبات المتوالية والتّحديات التي واجهتها على مدى الرّحلة بفعل بعض الشّخصيّات خصوصًا فإنّها أُحيطتْ بشخصيّات أخرى مثّلت أدوارًا عامليّة مساعدة هيّأت سُبل تحقيق رغبتها وإنْ على نحوٍ مؤقّت.

ثانيًا: «فيزياء1».

تمثّل «كريمة» في رواية «فيزياء1» (2009) نموذجًا للشّخصيّة المتمردّة على عادات مجتمعها وتقاليده على غرار الشّخصيّة الرّئيسة في «الطّواف»؛ إذ تهرب «كريمة» في «فيزياء 1» من قريتِها لتستقرّ -كما تقول الرّواية- في «العاصمة»، وذلك رفضًا لقرار والدها تزويجها من رجلٍ يكبرها بعقود من الزّمن، بعد أنْ أجبرها على الطّلاق من «وائل» الذي تزوّجته بغير رضاهم. انجرفت الشّخصيّة الرّئيسة (كريمة) بعد هروبها إلى «مسقط» في علاقات عاطفيّة سافرة تعبيرًا رمزيًّا ودلاليًّا عن تمرّدها على قيود الأسرة والمجتمع، كما سعت من خلال أفعالها لفضح ازدواجيّة الثّقافة الذّكوريّة في مجتمع المحكيّ.

وعلى الرّغم من بقاء الأسرة بعيدة عن «عوالم» الشّخصيّة الرئيسة في «مسقط»، لكن فكرة زواجها من «وائل»، ثمّ هروبها، ظلّت وصمة عار في سمعة الأُسرة، فحاول الأب معالجة الأمر بأن اقترح عليها الزّواج من «أبي سالم» السّتينيّ الذي يكبرها بأكثر من ثلاثة عقود، وهو ما تمّ بالفعل، لكن الزّواج انتهى بالطّلاق

(10) ينظر: عبد الواحد المرابط، السيمياء العامة وسيمياء الأدب: من أجل تصوّر شامل، الدار العربية للعلوم ناشرون (بيروت)، منشورات الاختلاف (الجزائر)، دار الأمان (الرباط)، ط.1، 2010، ص.9.

بناء على رغبة الشّخصيّة وقرارها، وذلك تمهيدًا لهروبها إلى «موسكو» للمضيّ في مرحلة جديدة من مراحل التّمرّد تنتهي بانكفاء الشّخصيّة على نفسها.

تتوافق بنية الشّخصيّة في «فيزياء 1» مع ما تتبّعناه في «الطّواف»؛ إذ تعبّر الشّخصيتان في الرّوايتين عن رفضهما تقاليد المجتمع المتخيّل وأعرافه في الزّواج، إضافة إلى فضحهما الممارسات الذّكوريّة ضدّ المرأة، وازدواجية بعض المعايير والقيم في مجتمع المحكيّ، وتلجأ الشّخصيّة في الرّوايتين إلى «الهروب» دلالة على الرّفض، وتنتهي بالانكفاء على ذاتها. فماذا عن بنية الشّخصيّة في «كارما الذئب: فيزياء 2»؟

ثالثًا: «كارما الذئب: فيزياء2»:

تشكّل قوّة الشّخصيّة في رواية «كارما الذّئب: فيزياء2» (2019) عنصرًا رئيسًا رابطًا بين هذه الرّواية والرّوايتين السّابقتين؛ إذ تقدّم «كارما الذّئب» الشّخصيةَ الرّئيسة (حميدة) قويّة في مواجهة صور شتى من الاستلاب الاجتماعيّ والفكريّ الذي عاشته، فمع أنّ الشّخصيّة أُجبرت على ترك دراستها والزّواج من «نبيل»، لكنّها لم تستسلم، وأصرّت على إكمال دراستها بعد الزّواج والإنجاب، ثمّ تعلّمت الاعتماد على نفسها في الزّراعة سبيلًا لكسب العيش كي لا يضطرها مرض زوجها إلى استحقاق الشّفقة أو الاستغلال، وبعد موت «نبيل» تزوجت من «أبي عُمر» (التّاجر النّزواني كما تسميه الرّواية في مواضع منها)، وانتقلت للعيش معه في لندن، ومع أنّ علاقتهما ظلّت على الهامش«ولم أستطع أن أحبه برغم كل ما فعله من أجلي، [...]، كنت أجامله كربّ بيتي ووليّ نعمتي...»[11]، لكنها ركّزت بعدها على مواصلة تحقيق هويّتها وترسيخ وجودها الذاتيّ من خلال إكمال دراستها في إدارة الأعمال، ثم تعلمها تجارة الأسهم لتصبح «امرأة أعمال منافسة» لرجال الأعمال.

الرّجل سبب مباشر في معاناة الشخصيّة في مجتمع المحكي في الرّوايات الثّلاث، ولهذا لا عجب إن وجدناها تقاوم سلطته الذّكوريّة باختيار مآلات دالة على الرّغبة في الخلاص من هذه السّلطة، والتّركيز على سرد مثالبه، بل محاولة إقصائه في مساحات واسعة من المحكي. فنكاد لا نجد شخصيّة ذكوريّة مثلا في «كارما الذّئب» إلا وتنتهي بالموت أو الإقصاء والغياب، وهو مصير متوارث عبر الأجيال في الرّواية، كما نجد الرّجل يحضر غالبًا في محكي «كارما الذئب» من خلال وسيط هو الشّخصيّات الأنثويّة؛ فهي من تنقل ملفوظاته وأفكاره وأفعاله دون أن يحضر مباشرة إلا في حيّزات نصيّة نادرة. وقدّم الذّكر غالبًا في صورة مشوّهة؛ فسوء أخلاق زوج جدّة «سلّام» مثلًا كان سببًا في طلاقها منه – كما تقول الجدّة، و«نبيل»، زوج «حميدة»، مريض عانى نوبات صرع متكرّرة ثمّ أنهى حياته منتحرًا، أمّا والد «حميدة» فأخلاقه وضيعة، لم يراع حقوق تربية أبنائه، ووالد «خديجة» شرّير انتهازيّ، وزوجُها ضعيف الشخصيّة، و«أبو عمر» خائن وتوفي فجأة، و«أبو ماجد» (فهد) سكير وزير نساء ومريض نفسيًا وتوفيّ فجأة بسبب تعاطي المخدرات، و«سلام» انهزاميّ جبانٌ لم يصمد أمام عادات مجتمعه ورفضهم زواجه من «حميدة» رغم حبّه الشّديد لها.

اجتمع المال والسُّلطة الاجتماعيّة في أيدي الشّخصيات الذكوريّة طويلًا في «كارما الذّئب» لكنّها شخصيّات انتهت بالمرض والموت وكأنّ السّرد يثأر منها لسوء أفعالها ضدّ المرأة في المحكيّ، لتؤول كلُّ أسباب القوّة في نهاية الأمر إلى الشّخصيّات الأنثويّة. وقد توافقت بُنية الشّخصيّة في هذه الرّواية مع ما لاحظناه في الرّوايتين السّابقتين؛ إذ تناضِلُ «حميدة» لتحقيق ذاتها لنيل الاعتراف بوجودها منتهجة سُبلًا متقاربة مع ما سلكته كلٌّ من: «زهرة» في «الطّواف»، و«كريمة» في «فيزياء 1»، وهذا ما سندرسه في موضعه من هذا العمل من خلال تحليل البرنامج السّرديّ المنظّم للحكاية.

(11) كارما الذئب، ص.213.

التّحليل:

نقف فيما يلي على العلاقات العامليّة التي تحكم عناصر الحكاية في أعمال الشحّي، بدءًا بعلاقة الرغبة بين الذات والموضوع، ثمّ علاقة الاتصال بين المرسل والمرسل إليه، وانتهاءً بعلاقة الصراع بين المساعد والمعارض.

1. علاقة الرّغبة: بين الذّات والموضوع

تمثّل علاقة الرّغبة في النّموذج العامليّ الرّابط الأساس بين الذّات بما هي «فاعل»، والموضوع بما هو «قيمة» مرغوب فيها. ويتمثّل وضع «الفاعل» في بداية القول من خلال إمّا اتّصاله بـ«القيمة» المُراد امتلاكها، أو انفصاله عنها. وفي الحالتين يبدأ انتظام البرنامج السّرديّ للمحكيّ من خلال توجّه الفاعل للتحرّك نحو تحقيق الرّغبة بالاتّصال أو الانفصال عن «قيمة» معيّنة.

تتشكّل القيمة المرغوب فيها في «الطّواف» ضمن إطارين؛ أوّهما رغبة الذّات (الشخصيّة الرئيسة: زهرة) في التّعرّف إلى الآخر الغريب (الأفريقيّ)، وثانيهما رغبتها في نيل حرّيّتها والنّجاة من مأزق الزّواج من ابن عمّها الذي يصغرها بسنوات.

والملاحظ أنّ حركة الذات مكانيًّا لتحقيق هذا الموضوع موجّهة من «القرية» إلى «المدينة» ثمّ نحو الهروب إلى بلدٍ آخر «زنجبار»، وهو ما يعني تحوّل الذّات من وضع «انغلاق على الذّات» نحو «الانفتاح على الآخر» وفق مراحل.

ففي «القرية» بوصفها المكان المحكي حيث عاشت الشخصيّة الرئيسة زمنًا، وجدت كثيرًا من القيم والممارسات التي «رغبت» الذّات في الانفصال عنها، ولعل أبرزها القيم المتّصلة بتقاليد الزّواج، والتّمييز ضدّ المرأة. مع ذلك، ما كان للشخصية الرئيسة أن تمتلك القدرة على التحرّك ضدّ هذه القيم لتحقيق رغبة الحريّة لولا بعض الأحداث والشخصيّات؛ فلو لم يُقدم ابن عمها «سالم» مثلا على التّخلّي عنها والزّواج من أفريقيّة «سوداء» (كما تقول)، بعد أن كان أهله اتفقوا على تزويجه منها (أي من «زهرة») لما تحرّكت في نفسها أسئلة سردها المحكيّ من قبيل: ما المميّز في الأفريقيّة عنّي؟ لماذا تخلّى عنّي واستبدلني بأفريقية؟ وعليه، فقد عملت الأحداث السلبية في دفع الشخصية للحركة من وضعٍ إلى آخر.

ثمّ لولا اتّفاق أهلها على تزويجها من ابن عمها «عبد الله» الذي يصغرها بسنوات لما اهتمّت بالتّعبير عن رفضها عادات مجتمعها وتقاليده، وسعيها للانعتاق والحريّة، فقد كانت ترى بنات القرية ممن يواجهن الأمر ذاته، وسبق أن عاشت سنوات طويلة تحت وطأة ممارسات ذكوريّة ظلّت عالقة في ذاكرتها حتّى بعد هروبها بزمن طويل. وبهذا فإنّ هذين الحدثين (زواج ابن عمها من أفريقية، وعادات الزواج في مجتمعها) حرّكا الذّات نحو تحقيق ما مثّل «قيمة» لديها في الحكاية: الانفتاح على الآخر، والتّحرّر من الانغلاق الذّاتيّ.

ولتحقيق رغبة اتّصال الذّات بموضوع القيمة (الحريّة) كان عليها مواجهة جملة من المخاطر، ليس أيسرها مشقّة عبور البحر برفقة انتهازيين وطامعين إلى مكان آخر.

وقد تمثّلت مراحل تحقيق الذات لهذه الرّغبة في ثلاث مراحل:

- فكرة ملحّة: تمثّلت في رغبة واضحة لبلوغ القيمة المنشودة (الحريّة).
- تحيين: وظهر من خلال انتهاز الفرصة واستثمار الأموال المتاحة للهروب.
- غائية: تحقيق الرّغبة المنشودة.

فمرافقة زهرة والدها وأخيها وعمّها من الجبل الأخضر إلى «نزوى» للاستعداد للزواج مهّد لها تحيين رغبتها، وتحقيق الهدف المنشود بالهروب بعيدًا خارج القرية.

وانطلاقًا من فكرة أن الدلالة تقوم على أنظمة من العلاقات[12]، فإنّ فعل «الهروب» و«طلب الحرية» لم يكتسبا أبعادهما قيمًا دلاليّة دون النّظر في القيم السو سيوثقافية المضادة داخل فضاء المحكي، وذلك من منطلق أن «البنية السردية تتقدم بصفتها مواجهة بين فاعلين رئيسيين: الفرد والمجتمع»[13]، ولذا فإنّ سعي الشخصية لفضح ممارسات العنصرية ضدّها، وكشف المعايير الذّكوريّة هو ما أكسب الهروب دلالته، كما منح «طلب الحرية» دلالة قيميّة في المحكي. إنّ فعل الهروب ما كان له أن يمثّل حدثًا مهمًّا لولا إنه أحيط بجملة من الحالات والتحوّلات أكسبته أهميته في المسار السرديّ.

وتتشابه القيمة التي سعت الشّخصيّة لبلوغها في رواية «الطّواف» مع القيمة في رواية «فيزياء1»؛ فالشّخصيّة الرئيسة (كريمة) تسعى إلى «تحقيق ذاتها» بعيدًا عن السُّلطة الذّكوريّة القامعة لها، وتعبّر عن هذا بداية في زواجها من «وائل»، البريطانيّ ذي الأصول الفلسطينية، وهو زواج يؤول إلى الفشل. وتؤكّد الشخصيّة وعيها بأنّ اختياراتها مقصودة ومتعمّدة، وإنها لم تكن محض نزوة عابرة، بأنْ طلبت من «مروان» كتابة قصتها ونشرها؛ وكأنها ترى الكتابة أقصى درجات تأكيد التّمرّد والمواجهة. وفي هذا موضع تساؤل: لماذا اختارت الشخصيّة رجلًا لكتابة قصتها، بينما الذي تتمرّد ضدّه هو الرّجل وثقافته الذكوريّة؟ ما المعطى الدلاليّ لهذه العلامة؟ هل لأنّ الرّجال يثيرون ضجيجًا أكبر بكتابتهم عن امرأة متمرّدة – على حدّ تعبير فيرينا آبيشير[14]، وكل ما تريده الشّخصيّة هنا هو هذا الضّجيج إشارة إلى أنّها لا تعبأ بقيود المجتمع؟ هل تريد من الرّجل أن يكون شاهدًا على هذا التّمرّد الذي يمثّل فعلًا جماعيًّا، وإن كان خيارًا فرديًّا؟ إنّه خيار فرديّ؛ لأنّ المرأة من ستخطو الخطوة الأولى فيه، لكنه فعلٌ جماعيّ كون الرّجل مشاركًا فيه في كلّ المراحل؛ في الصّراع والفعل، والفاعليّة.

تمثّل «الحريّة» القيمة التي سعت الذّات (كريمة) لتحقيقها في «فيزياء 1»؛ وقد مثّلت دور المرسل لبلوغ هذه القيمة. وظهرت «الحرية» قيمة مطلوبة على نحوٍ مباشر ومعلن لدى الذات بعد إرغامها على الطلاق من «وائل» من أهلها إذ تزوجته بغير رضاهم، «صرخت أمها وولولت كثيرًا عندما اضطرت ابنة العشرين للاعتراف بزواجها من الغريب القادم من بلدان الغربة. أمّا أبوها فما كان بيده أكثر من الصفعة الحادة على وجهها الهادئ البارد لتزيده إصرارًا [..] ووقفت أخواتها الصغيرات على الباب المكتظ بالأجساد العائمة في السواد»[15]، هكذا واجهت الأم تمرّد ابنتها بالقول (ولولت)، أمّا الرّجل فـ(بالعنف)، وبينما تحيل الأم في الرّواية على نمطٍ من النّساء في علاقته بالمجتمع وثقافته، تمثّل «كريمة» نمطًا مغايرًا، وتعبّر عن هذا في هروبها لتبدأ رحلة تمرّد تنتهي بعلاقة زواج مضطربة من «ليو»، الطّبيب الرُّوسيّ، الذي كان يعلمُ في قرارةِ نفسه – كما تقول الرّواية «أن كريمة لا تحبه، بل أنها تزوجته كخيار أخير»[16]، فهل «فيزياء 1» تقول لنا، من خلال تكرار النهاية نفسها في علاقة الشخصية بـ«وائل» أولا، ثم بـ«ليو» بعده، إنّ الأنا والآخر لن يجتمعا، وستظل فجوة تفرض حضورها بينهما أبدًا؟ هل الرّواية تتعمّد إسقاط «أسطورة» الآخر المرغوب، والمتقدّم علميًّا، والأخلاقيّ من خلال أحداث مثل: فشل زواج ليو وكريمة، وعجز الأطباء عن علاج ابن عثمان وموته، وفضيحة كون «أولغا» الروسية مجرّد جاسوسة تعمل لصالح المخابرات ضدّ زوجها؟

أشرنا إلى أنّ «كريمة» تمثل دورَ المرسل الدافع الذي يأخذ بزمام الأحداث، ويوظّف السبل لبلوغ «المرسل إليه»؛ ممثلًا في كريمة «الحرّة» من ازدواجية قيم المجتمع، وثقافته الذكوريّة. وقد عبّرت «فيزياء1» عن هذه الثقافة بأنْ نقلت صورًا شتّى من أحداث فضحت ازدواجيّة المعايير في مجتمع المحكيّ؛

---

(12) آن إينو، رهانات السيميائيّة، تر. رشيد بن مالك، دار التنوير، الجزائر، ط.1، 2014، ص.47.

(13) أ.ج. غريماس، سيميائيات السرد، سابق، ص.25.

(14) «الرجال يتصفون بالموضوعية، لكنهم يثيرون الضجيج، بينما النساء يتصفن بالعاطفية والفصاحة». فيرينا آبيشير، النساء واللغة: التصورات الاجتماعية للاختلاف، تر. قاسم المقداد، دار نينوى، دمشق، ط.1، 2019، ص.63.

(15) فـيزياء 1، ص.23.

(16) نفسه، ص.192.

ومن ذلك مثلًا تفاخر «عثمان» بعلاقاته العاطفيّة مستندًا إلى رصيد من التواطئ والقبول من أسرته والمجتمع، ثم زواجه من «أولغا» الرُّوسيّة دون أن «يفكر كثيرًا بتناقضاته الكثيرة، أو بعقدة الذنب على خروجه عن ديانته وجلده»[17]، بل ترحيب أسرته بهذا الزّواج بشكل «أذهل الروسية الجميلة، [فـ] القبل والأحضان الطويلة شيء لم تعتده في بلادها الملبدة بالغيوم»[18]، وفي المقابل رفض المجتمع زواج «كريمة» من أجنبيّ، بل أجبرها على التّخلّي عن زواجها: «إن ما ظناه [كريمة ووائل] من أسهل الأمور كان في نظر الحارة الصغيرة أسوأها»[19].

تنهض بنية الحكاية بهذا الشكل بتورية ثقافية[20]؛ فصحيح أن أحد الأنساق المشكلة للمعنى معلن وصريح وهو الأكثر حضورًا، لكن يبقى النّسق المُضمر من الحكاية أساسًا، وهو نسق «لا يتمظهر فقط في العلامات اللسانية، وإنما نلفيه -أيضا- في الأنساق السيميائية الدالة غير اللّسانية»[21]. وتقوم هذه الأنساق مجتمعة في «فيزياء 1» بفضح تركيبة ذهنية المجتمع بما يمنحه للذكر «الفحل» من امتيازات يسلبها من الأنثى، وتعلن بعض الشخصيات في مواطن من الحكاية عمّا هو صراع بين هذين القطبين بشكل مباشر لتكشف القبيح والبشع من الممارسات المجتمعيّة على نحو فجّ يماثل الواقع، فـ«كريمة» مثلًا تبرّر هروبها من أسرتها إلى «روسيا» بأنّها «ضحيّة التقاليد العمياء»[22]، وفي المقابل يصفها المجتمع بأنها «ضحية الحماقة»[23]. وعلى كلّ، تهيّأت لها جملة من العوامل التي ساعدتها في الظّفر بموضوع القيمة، وإنْ على نحوٍ مؤقّت.

ولا يختلف موضوع «القيمة» في «كارما الذئب: فيزياء 2» عنها في الرّوايتين السّابقين؛ إذ تسعى «حميدة» إلى تحقيق ذاتها رغم التّحديات التي واجهتها وأولها حرمانها من مواصلة تعليمها وإرغامها على الزّواج، فمضت في رحلة دؤوب في سبيل هذا الهدف. وتلحّ الرّواية على جعل الرّجل قطبًا رئيسًا في الصّراع؛ فزواج الشّخصيّة من «مسعود» معبأ بدلالات سلبية، غير أنّه يقوم بوظيفة مهمة في رسم الشّخصيّة قويّة: فقد أكملت تعليمها رغم متطلبات أمومة طفلين، إضافة إلى واجبات البيت، وأعباء مرض الزّوج، وشظف العيش. كان لقهر المجتمع دورٌ في نقل الشخصية إلى أفق آخر، أفق صهر الحواجز النفسية الداخلية لخوض غمار تجربة ألفها الرّجال دون النِّساء في مجتمع المحكيّ ألا وهي تجربة التّجارة. تسلّحت «حميدة» بالجرأة، وراحت تبيع غلّة حقل الجبل في سوق نزوى، ولم يتحقّق لها الاستقلال المادي من هذه المغامرة فحسب، إنّما كان الأمرُ فرصةً لزواجها من أبي عمر «التّاجر النّزواني»، وانتقالها معه برفقة أبنائها إلى «لندن» حيث ستدرس تجارة الأعمال، وتقوم بدور امرأة أعمال منافسة. تتكرّر النهاية التي وجدناها في الروايتين السابقين في «كارما الذئب»، وكأنها نهاية ضرورية ومسلّمة، فبعد أن تصل الشخصية إلى أقصى درجات التحدي في بلوغ القيمة المرغوبة، تبدأ في التقهقر والتراجع، وكأن الوصول إلى القيمة المنشودة أمرٌ «مؤقت» وجزئي، بينما تكون عادات المجتمع راسخةً وإرثه عصيًّا على التّجاوز، أو كأن الأمر يحتاج زمنًا وأجيالًا وتجارب عديدة. وتبدأ رحلة تقهقر الشخصيّة (حميدة) بموت أبي عمر واكتشاف «حميدة» خيانته، ثم يضطرّها الحنين إلى وطنها للعودة إليه، وهنا نستنطق دلالة هذا الفعل الذي يشابه ما وجدناه في العملين السّابقين؛ فرغم ما حققته الشّخصيّة من مكاسب في البَلد الغريب، لكنّها على المستوى الشّعوريّ والنّفسيّ

(17) نفسه، ص.40.
(18) نفسه، ص.69.
(19) نفسه، ص.23.
(20) محمد بن لافي اللويش، جدل الجماليّ والفكريّ: قراءة في نظرية الأنساق المضمرة عند الغذاميّ، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط.1، 2010، ص.ص.142-143.
(21) أحمد يوسف، السيميائيات التداولية من البنية إلى السياق، ضمن كتاب: التداوليات وتحليل الخطاب، إشراف وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، ومنتصر أمين عبد الرحيم، كنوز المعرفة، عمّان، ط.1، 2014، ص.54.
(22) فـيزياء 1، سابق، ص.29.
(23) نفسه، ص.29.

بقيت بعيدة عنه ترفض تقبّل فكرة الاستقرار فيه؛ فهل تريد هذه الأعمال التّأكيد على فكرة تنافر الغرب والشّرق؟

إذا تتبّعنا حركة الشّخصيّة الرّئيسة في «كارما الذّئب» لوجدناها تماثل حركة الشّخصيّة الرّئيسة في الرّوايتين السابقتين، هناك تهربان من القرية إلى المدينة ثم بعيدًا خارج الوطن، وفي «كارما الذئب» تذهب الشخصيّة إلى «صحم» برفقة زوجها، وتعود بعد مرضه إلى الجبل، ثم بعد موته تتزوج لتتهيأ لها فرصة الانتقال برفقته زوجها وأبنائها إلى «لندن».

ويقع التشابه بين هذه الروايات على مستوى التناقضات المجتمعية وازدواجية المعايير التي تحكم قيم مجتمع المحكي وتناقضاته؛ فزواج عثمان من الأجنبية «ناتالي» لم يلاق اعتراضًا من أهله بل ترحيبًا لأنها أحسنت التظاهر بتقبل عادات أهله عند زيادتهم، بل وصل الأمر أن تظاهرت برغبتها في الإسلام ما أزال كل توجّس منها في نفوسهم: كلتا «العائلتين بمعظم أفرادهما تقبّلتا زواجنا بالتبريكات والدعاء وهذا يبشر بالخير. ويبدو أن خبر رغبة ناتالي في الإسلام قد عملت عملها عند أمي التي صارت أكثر ابتسامًا وفرحًا»[24]. وفي المقابل، فإن إقدام الشّخصيّات الأنثويّة على مثل هذا الفعل لا يقابل بالانسجام والتّفهم، ما يعكس تناقضات في الأنساق القيميّة للمجتمع مثّلنا عليها فيما سبق.

إنّ نهاية هذه الأعمال الثّلاثة بمغادرة الشّخصيّة مجتمعها وظفرها بموضوع القيمة (الحريّة، الاستقلال، تحقق الذّات) يؤسّس فكرة التّرابط والتّداخل بين الأنساق السّرديّة المشكّلة هذه الأعمال الثّلاثة، وهي أنساق تعبّر عن محاولة إسقاط النّخبويّ المتمثّل في البطريركية والأبويّة وإخضاع المرأة وعزلها عن القيام بدورها في المجتمع، وفي المقابل إبراز المهمّش الماثل في «ذات الأنثى»، وتقديمها قويّة، وفاعلة، كما إنّ النّهاية بالشّكل الذي رأينا تُسْفِرُ عن دلالة إنّ بلوغ مرحلة الحرية والمساواة وتماهيهما في وعي المجتمع يتطلّب أجيالًا وأزمنة وتجارب عديدة.

وكون اللُّغة سُلطة يفعل بها الإنسان الفعل على النّاس – على حدّ تعبير عبد السلام المسدّي[25]، فإنّ حركة الشّخصيات ومصائرها في الروايات الثلاث شكل من أشكال السلطة الذي تكرس بدريّة الشحيّ اشتغالها عليه لتعلن عن إلحاحها على خلق ظروف أفضل للشخصيات الأنثويّة في الحكايات، ظروف غابت في المجتمع المتخيّل، ومثّلت «قيمًا» سعت الشّخصيّة لبلوغها. ونرى أن هذا ليس مسألة شكليّة أو تمرينًا كتابيًّا أرادته المؤلّفة، إنّما هو دلالة على وعي ما فتيء كلُّ عمل من أعمال الكاتبة يعيد الحفر فيه، فـ«اللغة تدل بما هي كلام وتدل بما هي علامات وقرائن وإشارات»[26] على وعي الإنسان، وعلى هذا فتضافر بنى الشّخصيّات في أعمال بدرية الشّحي على النّحو الذي وجدنا يكشف عن دلالة نسقيّة ذهنيّة راسخة في عقل الكاتبة، وهي دلالة تكشف عن محاولات دائبة لفرض صورة امرأة قويّة، رافضة للخضوع، ومتمردة على ازدواجية القيم، وعنصريّة المعايير المجتمعيّة التي تُمارس ضدّها.

2. علاقة الاتّصال: بين المُرسل والمُرسل إليه

تمثّل قيمة الحريّة والهروب من الزّواج التّقليدي قاعدة للصّراع في رواية «الطواف»، وقد مرّت الشّخصيّة بأربع مراحل رئيسة قصد اتّصالها بموضوع «القيمة» (الحرية)، هي: مرحلة التحفيز، وتوفر الكفاءة، وتحقيق الإنجاز، وتقييم الإنجاز.

ويعدُّ المرسل عاملًا دافعًا لاتصال المرسل إليه بالقيمة، وقد يكون المرسل هو نفسه المرسل إليه في بعض القصص، وهو تداخل مثل أحد مداخل نقد الترسيمة العاملية لغريماس، واقتراح معالجتها على نحو النّقد الذي قدمته آن أوبرسفالد (Ubersfeld Anne) (1918 - 2010)[27]. وعلى كلّ نجد «زهرة» في

(24) كارما الذئب: فيزياء 2، ص.172.
(25) عبد السلام المسدي، السياسة وسلطة اللغة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط.1، 2007، ص.7.
(26) نفسه، ص.17.
(27) ينظر مثلًا:

«الطواف» مرسِلًا رئيسًا قامت بجملة أفعال قصد بلوغها قيمة الحريّة والهروب من خطّة الزّواج بابن عمها الذي تكبره في العمر بأكثر من عقد.

تتأسّس رغبة بلوغ الشّخصيّة (زهرة) قيمة الحريّة على وحدات تلفظيّة عديدة منذ بداية الحكاية، فهي تراوح بين رفض العبودية في مواضع عديدة، وقبولها في مواضع أخرى. فعلى الرغم من أنّها كانت تمتعض من تخلّي سالم، ابن عمها، عنها، وزواجه من أفريقيّة، وبالتالي كان لها أن تنتهز أي فرصة للقدح في طرفي هذا الزّواج، انزعجت من أخيها وأبيها حين وصفا «الأفريقية» بملفوظات عنصريّة: «عبدة تخرب النسل»، و«خادمة»[28]، ثم عادت في موضع من الرّواية لتصف الأفريقيّة بـ«السّوداء»[29]، وبأنّ «أنفها أفطس»[30]، وهي أوصاف نبررها بفضح ازدواجيّة المجتمع، وبغيرتها، وفضولها للتّعرّف على هذا الآخر الدّخيل[31]. وقد عبرت الشّخصيّة عن هذا الفضول بقولها: «ماذا ينقصني لأكون زوجة سالم؟ جميلة وأخبز وأطبخ وتنجيمي أدق تنجيم على الجبل. ماذا ينقصني؟ نظيفة ومطيعة وأعمل كالحمار بلا كلل. لماذا تركني وفضل أخرى، ماذا وجد فيها؟!»[32] وهو الفضول الذي سيدفعها للإلحاح في طلب معرفة الآخر الغريب، بل الهروب إلى بلده (أفريقيا).

وإضافة إلى ما سبق، تشفّ ازدواجيّة موقف الشّخصيّة بين رفضها العنصريّة وممارستها لها[33] عن أنّها لم تتبن موقفًا متزمِّتًا رافضًا الآخر «الدّخيل» تمامًا، فهي شخصيّة متشكّلة؛ قابلة للانفتاح على الآخر والتّعرّف إليه، متراوحة بين التّمرّد غالبًا والرّضا نادرًا، وهذه جملة عناصر أهّلتها لتكون عاملًا «مرسلًا»[34].

عبرت الشخصية المعبر عن تمرّدها من خلال سردها مواقف عديدة من بينها رفضها سلطة القبيلة، وحنقها على تواطئ والدتها مع الأفكار الرجعيّة ضدّ المرأة، وغضبها من ازدواجية المعايير الأخلاقية التي يربّى عليها الأبناء في المجتمع مقابل المعايير التي تربّى عليها البنات[35]، وتذمّرها من خنوع «البنات» وضعفهن، ورفضها الطّاعة العمياء لأهلها، وكل هذه المواقف مثلت مقوّمات جوهريّة أهّلتها لتقوم بدور الـ«مرسل».

تهيأت أسباب عديدة لتحقق هذا الدور ووصل الشخصية الرئيسة (زهرة) «بالمرسل إليه» في الحكاية، وأول هذه الأسباب معرفة الشّخصية بـ«حاجة نوخذة» يعمل في تجارة العبيد بين عُمان وأفريقيا، فانتهزت الفرصة لتحقيق حيلة الهروب، وعرضت عليه ما تملك من مالٍ لقاء تهريبها سرًّا إلى أفريقيا، وكونه مستعدًا لفعل أيّ شيء نظير المال فقد تحقّق للشّخصيّة ما أرادت، وهكذا تحقّقت أولى «مراحل» اتّصال «المرسل» بـ«المرسل إليه».

جملة من الصفات أضفت على الشّخصيّة الرئيسة أهلتها للقيام بدور المُرسل في الرّواية، لعلّ أبرزها: الفضول الذي عبرت عنه بكثرة طرح الأسئلة في مواقف عديدة حيث كان توجيه السؤال أمرًا محظورًا،

Gajdoš, J. (2007). From Drama Technique to Scenology (Vol. 4). Časopis Disk a edice Disk.p.14&p.-p.43-57.

(28) الطواف حيث الجمر، ص.14.

(29) نفسه، ص.21.

(30) نفسه، ص.11.

(31) محمّد زرُّوق، سرد الهويّة: خطاب الهويّة الرّوائيّ في السّرد النّسائيّ، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعيّة، جامعة السّلطان قابوس، ديسمبر 2017، م.8، ع.3، ص.ص.71 – 80.

(32) الطواف حيث الجمر، سابق ص.ص.10-11.

(33) نجد في الرّواية جملة من ملفوظات الشّخصيّة المعبّرة عن ازدواجيّة موقفها من العنصريّة، مثل: «تحدث عمي مطولا مع خادم أسود حديث السن» (ص.30)، «كان [خادم النزل] ساذجًا، فزادتني حماقته ارتباكًا» (ص.32).

(34) وعلى كلّ، فإنّ ازدواجية الموقف إزاء الآخر تعبّر عن ازدواجيّة المجتمع نفسه، وانقسامه بين ظاهر يرفض العنصرية، وباطن يمارسها على نحو ما في الملفوظ المزدوج الذي يرد على لسان الأب: «لا فرق بين الناس إلا بالتقوى.. لكن خادمة؟ ترك الحرّات من أجل خادمة» (ص.14).

(35) تقول مخاطبة أخاها عليّ: «كانت لكَ وأخوتك مطلق الحرية، تسرح في الأرض، تغازل الحريم عند الفلج، تواعد وتعود وقتما شئت، تنام القيلولة كل يوم بينما أكون وقتها أجابه نعاس التعب وأغسل آنية الغداء مصاحبة الشمس. حتى في الحقل، بالكاد تمتد يداك تخرفان الرطب أو تجزان القت للبهائم كل شيء كنت أفعله أنا ومعي أمي التي لا تشكو، تدفعك هي لترتاح ونبقى كلتانا نشقى حتى المساء». (ص.24)

ورفضها قبول تمثيل دور الضّحيّة، ورفضها أيضًا التواطؤ مع مجتمعها فيما يمارسه من تمييز ضدّها، أو فيما يحاول أدلجتها عليه من أفكار من قبيل إن «ابنة الأصل لا تعترض على قرارات الرجال»[36]، بل إحساسها بالإهانة جرّاء ما يمارس على المرأة عمومًا من تمييز في مجتمع الرّواية.

وتتشابه رواية «فيزياء 1» مع «الطّواف» في تمثيل «الحرية» و«الهروب من الزواج» موضوع القيمة التي تسعى الشخصيّة لبلوغه، وقد برزت الحريّة موضوع قيمة للشخصيّة بعد أن أجبرها أهلها على الطلاق من «وائل»، وتهديد والدها على إرغام أخواتها على ترك المدرسة وتزويجهن خشية عار قد يجلبنه.

كشفت أدوار الشخصيّة الذكورية في «فيزياء 1» عن امتهان المرأة في مجتمع المحكي وازدواجية المعايير؛ فزواج «عثمان» من أجنبية (أولغا) يبارك من أسرتِه، أمّا «مروان» فيغرق في علاقاته الكثيرة ويتباهى بها[37]، ثم ترك زوجته ومضى خلف «كريمة» إلى «موسكو»، وفي المقابل عُدّ كلُّ فعل أقدمت عليه الشخصيّة الأنثويّة تهوّرًا، ولا وعيًا، وتهديدًا لقيم المجتمع.

تركِّز الرّواية على رصد تناقضات ذهنية المجتمع الذكوريّ فيما يخصّ المرأة؛ فرغم أنّ «كريمة» تمثّل مكسبًا لـ«مروان» كان يسعى إليه، لم يجرُؤ يومًا على التّفكير فيها زوجة؛ لأن الزّوجة في ذهنه «امرأة ساذجة وبريئة.. تجلس في الركن تنسج قميصًا لمولودها المنتظر..». [38]، وعلى كلّ فإن صفات «مروان» ساعدت في أن يكون عاملًا شارك في تهيئة أسباب ظفر الشخصيّة (كريمة) بالموضوع. فهو كاتبٌ، تحرّري، ما أتاح لها فرصة التّحدث معه بحريّة، ومراجعة خياراتها، وكتابة قصّتها. ثمّ رافقها إلى روسيا ووفّر لها أسباب الشّعور بالاطمئنان في البداية، قبل أن يتركَها خلفَه ليعودَ إلى زوجتِه.

ظهر الطبيب الروسي «ليو» في مرحلة متأخرة من الحكاية، مع ذلك كان له الدور الأبرز في وصل الشخصيّة الرّئيسة بالموضوع. فقد وقع في حبها، ومثّل القشّة التي تمسكت بها الشخصية لضمان البقاء في روسيا، وهذا ما تمّ بأنْ تزوّجا وأنجبا. ورغم هذه الخطوة فإن انهيار العلاقة بينهما (ليو، وكريمة) يعيدنا إلى النّهاية نفسها التي قرأناها في «الطواف» إذ انتهت علاقة «زهرة» بزوجها الأفريقي، وكأن الرواية تقول لنا: إن الشّرق والغرب، والأنا والآخر، سيظلان في انشقاق وخلاف أبدا، ولن ينسجما في مصير واحد أبدًا.

تصير هذه الفكرة أكثر كثافة بالنظر في المآل الذي انتهت إليه مصائر العلاقات التي جمعت الشخصيات العربية والشخصيات الغربية؛ فنجد وائل مثلا وهو الإنجليزي من أصول عربيّة، ينفر من الفتيات الإنجليزيات، ويصفهن بانعدام الأنوثة[39]، وينتهي زواج «عثمان» العُماني و«أولغا» الرُّوسيّة بالطلاق بعد اكتشافه أنها جاسوسة عليه، وقبل هذا يُتَوفَّى ابنهما «ليو» الطفل بعدما «عجز» الأطباء عن علاجه، والموت هنا يحمل دلالة تعطيل امتداد العلاقة فيما بين الشخصيتين على نحو مباشر، وبين الشرق والغرب عمومًا، كما هو كسر للصورة النّمطيّة الرمانسيّة التي ألفت في مدونات الشرق في تصويرها الآخر معجزًا لتقدّمه العلميّ.

أمّا في «كارما الذئب: فيزياء 2» فتهيئ الشخصية الرئيسة (حميدة) الأسباب لتبلغ قيمة الحريّة والاستقلال الذاتي، فرغم زواجها في سنّ مبكرة قبل أن تكمل تعليمها لم تستسلم للواقع، إذ راحت تعمل بإصرار للتغلّب على الظروف في سبيل بلوغ صورة الأنثى القويّة التي تخالف الصورة النمطية للأنثى في مجتمع المحكي. وتبدأ هذه الأسباب بخروج الشخصية مع زوجها بحكم عمله من قريتها إلى «صحار» حيث ستكمل تعليمها في المدرسة، وتتعلّم قيادة السّيارة.

يحضرُ الجسد في «كارما الذئب» عنصرًا رئيسًا في تشكيل دلالة المحكي؛ إذ شارك على نحو جوهريّ في تأطير العلاقة بين الشّخصيات الذكورية والأنثوية بوصفه علامة «تحدد نوعية علاقتها بالموضوع الذي

---

(36) الطواف حيث الجمر، سابق، ص.22.
(37) فيزياء 1، سابق، ص.28.
(38) فيزياء 1، سابق، ص.54.
(39) نفسه، ص.19.

تعيّنه في إطار الإشارة»[40]، فهو ليس مجرد «وحدة مورفولوجية، عضوية وفيزيائية، وإنما وحدة تشكّل حركة دالة لها نسقها الخاص»[41]، ومن المعلوم أن تحديد هذا النسق يتم وفق قوانين العمل الأدبيّ ككل. فـ«نبيل» طيّب، ضعيف الشّخصيّة، وهو يعاني العنّة، وانتهى مريضًا يخلط الناس في أمره بين إصابته بالجنون أو بمس من الجن أو إصابته بالصّرع، وكان مصيره أن مات منتحرًا. إنّ تركيز المحكي على نقل علامات الشّخصيّة الذّكوريّة الجسديّة وما يتّصل بها (العنّة، والجنون) يحيلنا على استنطاق دلالته في رغبته في إخراج «الموصوف» من علامة الجسد الطّبيعيّ، أو الإنسان الطّبيعيّ، من خلال سلبه علامات أساسيّة، ولذا سلبه روابط علائقيّة توصل لها تلك العلامات، فالعنّة سلب لإشباع حاجة غريزيّة وانفعاليّة، والجنون (أو الصّرع) سلب لضرورة الفكر، وهو على كلّ بتر لركيزة في ميكانزم عمل الجسد ووظائفه. وعلى كلٍّ، توظّف الشّخصيّة الرّئيسة «حميدة» هذه الصّفات للتّركيز على بناء ذاتها، فعنّة زوجها تصير سببًا للنفور منه، وطيبته وضعف شخصيته تهيئ لها إمكانية اعتمادها على نفسها من خلال التّعليم واكتساب المهارات اللّازمة، ومرضه ييسّر لها أسباب المال وتربية الأبناء والاعتماد على الذّات، أمّا انتحاره فسيكون فرصة لزواجها من «التّاجر النّزواني» وخروجها من مجتمعها إلى لندن.

مثّل التّاجر النّزواني «أبو عمر» عنصرًا مساعدًا للشّخصيّة الرّئيسة (حميدة) لبلوغ قيمة «الحريّة» و«الاستقلال الذّاتي»، فبعد زواجهما رافقته مع أبنائها إلى لندن حيث ستعيش إلى بعد وفاته، وتكمل تعليمها، وتتحوّل إلى امرأة أعمال، وتشارك زوجها في إدارة أمواله، وتكون لها الكلمة الأعلى في تربية أبنائها، وإدارة شؤون أسرتها.

3. علاقة الانفصال: المُساعد والمعارض

مثّل «النوخذة الصّوري» في رواية «الطواف» عاملًا مساعدًا لوصول الشّخصيّة لطموحها بالهروب إلى زنجبار وتحقيق ذاتها، فرغم كونه انتهازيًّا، وطماعًا، وحقودًا، ورغم التحديات التي واجهت الشّخصيّة على متن الرّحلة من البحارة أنفسهم ما كان للشخصية أن تصل إلى هدفها لولا وجوده. فقد بررت صفاته مجازفته بعادات المجتمع وتقاليده، كما إنّ جملة التّحديات التي تخللت الرّحلة أضفت عليها طابعًا «تخييليًا ممكنًا»، وهي كانت بمثابة تجارب تصقل الشّخصيّة وتهيّئها لتحدّيات حقيقيّة تختبرُها.

وإلى جانب «النّوخذة الصّوري» (سلطان) نهضت شخصيّات أُخرى بدور «المُساعد» للشّخصيّة، أهمّها «صالح» الذي عرض عليها الزّواج لحظة وصولهما إلى ممباسا، وقد قبلت «زهرة» عرضه بعد أن رأت أنّ الزواج منه سيقرّبها من بلوغ الـ«الهدف» الذي يقف وراء هذه المغامرة كلها. تقول فيما يشبه المونولوج الداخليّ: «صالح أفضل بكثير من عبد الله، على الأقل لن أكون عبدة هذه المرة»[42]. وفعلًا اشترى صالح لها مزرعة في إشارة إلى بداية تحقق الذات وبلوغ موضوع «القيمة»، وشجّعها على العمل بعد أن أبدت له رغبتها في ذلك. أقتبس من الرواية الحوار الذي دار بين «زهرة» وزوجها «صالح»: «أريد [زهرة] أن أعمل بالقرنفل يا صالح، ليس فقط في البيت.

ضحك عاليًا: والقرنفل يا الغالية، ماذا أخسر، إننا في أفريقيا وهذا أمر عادي أن تعمل المرأة وتتاجر»[43]

يكتسب طلب الشّخصيّة «العمل في القرنفل» أهميّة خاصّة في سياق الحديث عن «الموضوع» حسب خطاطة العوامل، فرغبة «الذّات» في اكتشاف الآخر الأفريقيّ هو جزء أساس من الرغبة في تحقيق الذات بوصفه موضوعًا أكبر، وهي رغبة ترتبط -كما سبق القول- بسؤال زهرة نفسها: ما الذي يميّز الأفريقية عنّي؟ ردًّا على زواج سالم، ابن عمها، من أفريقية، وتخلّيه عنها. إنّها رغبة اكتشاف الآخر – الغريب.

---

(40) سعاد حمداش، فلسفة اللغة وسؤال المعنى: بحث في سيميائيات الاستعارة الفنية، كنوز المعرفة، عمّان، ط.1، 2022، ص.169.
(41) نفسه، والصفحة نفسها.
(42) الطواف حيث الجمر، سابق، ص.183.
(43) نفسه، ص.187.

ومع أنّ «الزواج» وشراء «بيت» و«مزرعة» لزهرة بمثابة فرص مكّنت الشخصية من الإحساس بتحقق الذّات، غير أنّ هذا الزّواج لم يستمر بوصفه عاملًا مساعدًا، فقد دبّر سلطان مكيدة لقتل «صالح»، وهو ما تحقّق.

إنّ مصلحة سلطان من هذا الفعل هو إعاقة طموح الشّخصيّة، وإبقاؤها في حاجة مستمرة له، على أمل أن تقبل الزواج منه كما كان يسعى. وقد مثلت رغبة سلطان في الزواج من «زهرة» جسرًا آخر مساعدًا لتحقيق الشخصيّة «هدفها»؛ فقد عرض عليها في بمبا بيتًا ومزرعة يجعلهما ملكًا لها نظير قبولها الزواج منه بعد عودته من رحلته إلى صور، وهو عرضٌ ساعدها على «تحقيق ذاتها»، فصارت سيّدة ما تملك، تأمر «العبيد» فتطاع، وهي فرصة حققت لها «إحساس» الاستقلال، والحريّة.

لم يدم هذا الإحساس طويلًا نظرًا لظهور شخصيّات معارضة لرغبة الشخصيّة، فبعد تقلّص دور الأهل بوصفهم قطب صراع في بداية الحكاية، ظهر الآخر الأفريقيّ قطبًا مباشرًا في الصّراع، وهو قطب منع استمرار شعور الشخصية بالتحقق وبلوغ موضوع القيمة، تصف مثلا مشاعرها وهي تدخل بيتها في بمبا: ارتادني «شعور بالنشوة وأنا أنظر للمكان بعين الهدوء والطمأنينة»[44]

مثّل الآخر الأفريقيّ ممثّلًا في شخصيّة الزّنجي «خميس» قطبًا مباشرًا في الصّراع بين الذّات والموضوع، فهو يمتلك من الصفات ما تؤهله لأنْ يكون خطرًا حقيقيًّا يهدّد تسيّد الشخصية (زهرة) في أفريقيا كما يهدد استقرارها وإطالة وضع تحقيقها الهدف الذي حلمت به طويلًا، وأبرز هذه الصفات اعتزازه الشّديد بهويته الأفريقية، وتمسّكه بأرضه، ورفضه استمرار استعباده وقومه من الآخر العربيّ. جميع هذه الصفات منبثقة من صفة أعمق متمثلة في كونه - بخلاف غيره من العبيد الأفارقة - شخصية متعلّمة، (متفرنج كما تصفه الرّواية)، ويملك روحًا قياديّة تشكّل خطرًا في القدرة على تحريض العبيد على التّمرّد والعصيان مما يقضي على مصالح «أسيادهم». وانطلاقا من هذا، فكلّ هذه الصفات شكلت عوامل خطر على ديمومة «اتصال» الذّات بالموضوع في «الطّواف».

أما في رواية «فيزياء 1» فنجد شخصيتين قامتا بدور المساعد، وإن بشكل غير مباشر، لوصل الشخصية بموضوع القيمة. أولهما «مروان»، الذي هيأ لـ«كريمة» الفرصة أن تسرد قصة زواجها من «وائل»، ثم طلاقها، وهروبها، كما هيأ لها فرصة كتابة قصتها شكلًا من أشكال المواجهة والجرأة؛ إذ لم تعد تخشى أن تنشر قصّتها هذا فضلا عن عدم خشيتها من ألسنة النّاس في مجتمعها. هيأت الظروف أن تغادر «كريمة» برفقة «مروان» ووطنها إلى روسيا في مرحلة جديدة من مراحل التمرد: «قرر فجأة أن يحزم حقيبته، طلب من كريمة أن ترافقه»[45]. وهذه الفرصة تحديدًا مكنتها من بلوغ بعد آخر في هدفها ممثل في ابتعادها عن مجتمعها، ومضاعفة أحداث تمردها، بزواجها هذه المرة من «ليو» الروسي، وإنجابها منها.

هكذا يقوم «مروان» بدور المساعد للشخصية لبلوغ قيمة «الحرية»؛ وهو دور غير مقصود؛ فحين قبل عرض كتابة قصتها، ونشرها كان يسعى لكسب المال؛ خاصة بعد استقالته من العمل، وحاجته الملحة إلى المال، ولم يكن يقصد مساعدة الشخصية، أمّا في حدث هروبه إلى موسكو فقد كان يراها مجرّد «معشوقة»[46]، و«خائنة»[47] في الوقت نفسه، بينما كانت ترى الأمرَ فرصة لتحقيق الخطوة الأولى من حلمها: «خلينا نهاجر، خلينا نعيش مغتربين... هنا العالم عايش على كيفه، محد له خص بحد».[48]

(44) نفسه، ص.ص.213-214.
(45) فيزياء 1، ص.110.
(46) نفسه، ص.110.
(47) نفسه، ص.162.
(48) نفسه، ص.111.

تعمّدت الحكاية التّأكيد على أنّ مساعدة «مروان» لـ«كريمة» لم يكن مقصودًا، فقد كتب قصتها مضطرًّا للمال، وترافقا إلى موسكو مجبرين بفعل الظروف، وهذا اختيار واع لصياغة الأحداث في «فيزياء 1»؛ إذ كيف سيدعم الرجل في هذا المجتمع الذكوري المرأة لو لم يكن مجبرًا؟

أما الشّخصيّة الثّانية التي قامت بدور العامل المساعد فهي «ليو»، الطبيب الروسي، الذي أحبها ومنحها الاستقرار من خلال البيت والأسرة والحب. لكن إمعان الشّخصيّة في التّمرّد، ورفضها التأقلم مع حياتها الجديدة يخفي في ثناياه أخصب مظاهر تصوير آلام الماضي العنيفة وأثرها في النفس.

تتشكّل صورة العوامل المعارضة في محكي «فيزياء 1» من الرّجل عمومًا، فلا نكاد نرصد حدثًا سلبيًّا إلا ونرصد شخصيّة ذكوريّة تقف خلفه. وفيما يخصّ خطاطة العوامل في علاقتها بالشخصية، نجد الأبَ (والد كريمة)، والمجتمعَ الذّكوريّ، وما فرضه من تقاليد عقيمة سببًا مباشرًا لخلق التّوتر، وبناء شخصيّة مترجّحة بين السّخط والشّذوذ والتّمرّد. فقد صوّر المحكي الرّجالَ، من غير استثناء، منتهزين، يشيّئون المرأة ويعدّونها مجرّد وسيلة للمتعة.

هذا المجتمع الفاقد لدفء الرّوابط الأسريّة دفع المرأة للسّخط عليه، وحرّكها لإعلان تمرّدها على قوانينه، وأفضى بها إلى رفض أيّ علاقة أُسريّة مستقرّة؛ الأمر الذي يُفَسِّر توتّر علاقة الزّواج بين عامل الذّات «كريمة»، و«ليو»، وكأنّ تمرّد الشّخصيّة قانون جبريّ لا خيارَ لها فيه.

مثّلت شخصيّتا «نبيل»، و«التّاجر النّزواني» عوامل مساعدة للشّخصيّة الرّئيسة (حميدة) في «كارما الذّئب» لتحقيق قيمة الحريّة. فنبيل، رغم صفاته السّلبية، مثّل دافعًا للشخصية لتتجاوز صورًا من العبودية والإهانات التي لحقتها في مجتمعها فقط كونها أنثى، ولعلّ ضعف شخصيته صفاته السلبية التي خوّلته ليكون عاملًا مساعدًا للشخصيّة: «وكان [نبيل] خائفًا أكثر مني [حميدة] ولكنه يحاول تمالك نفسه أمامي ليثبت رجولته»[49]. هيّأت صفات نبيل بمجملها أسباب عودة الشّخصيّة للدِّراسة، وفُتحت أبواب أكبر لها بعد أن اضْطُرّ لمغادرة قريته إلى العمل، فانتقلت معه ما هيّأ لها التّحرّر -وإنْ جزئيًّا- من قيود اجتماعيّة والتّركيز على بناء ذاتها وأسرتها تمهيدًا لمرحلة قادمة في المحكي إذ تبلغ موضوع «القيمة» كليًّا.

أمّا التّاجر النّزواني فقد فتح للشّخصيّة الرّئيسة «حميدة» أبوابًا واسعة للتّقدّم نحو موضوع «القيمة»، وقد تعمّد السّارد التّركيز على أنّ العلاقة بينهما (التّاجر النّزواني، وحميدة) كانت بفعل الضّرورة لا الحبّ؛ فقد هرب التّاجر من استغلال زوجته ابنة عمّه وخيانتها له، وهربت هي من فخّ القرية واستغلال المجتمع، وبقيت الألفة ما يحكم علاقتهما إلى بعد وفاته: «لم أستطع أن أحبه برغم كل ما فعله من أجلي، لم يكن ذلك بمقدوري برغم محاوولاتي في إقناعه وإقناع نفسي، كنت أجامله كربّ بيتي ووليّ نعمتي»[50]

على كلٍّ، ركّزت الشّخصيّة على بناء ذاتها لتجاوز أعطاب القرية التي ظلّت حاضرة تتذكّرها حتى بعد مدّة من مغادرتها إيّاها، وقد ساعدها «أبو عمر» في دراسة «تجارة الأعمال»، وكان هذا الحدثُ تمهيدًا لتصبح امرأة أعمال تملك شركتها الخاصّة، وتنافس التّجّار الرّجال، وتشارك في إدارة أموال زوجها، واستثماراته، وتخطّط لمستقبل أبنائها. كلّ هذه المحطّات بمثابة تحوّلات جوهريّة في الشخصيّة ودورها، وهو أيضًا تحوّل في نظرة النّاس إليها ومعاملتهم لها، وقد أدركت الشّخصيّة هذا التّغيّر منذ بداية زواجها وقبل انتقالها إلى لندن، تقول مثلا مقارنة بين وضعها في القرية وبعدها: «كنت فقيرة ومقطوعة الجناح، لم أكن في أعينهم شيئًا يستحقّ المساعدة. كما أنني أذكر جيدًا كيف تغيرت نظرتهم نحوي عندما تزوجت أبا عمر، صاروا يزورونني في بيتي ويتخذونه نزلًا كلما كانت عندهم حاجة في السوق»[51]

(49) كارما الذئب، ص.192.
(50) كارما الذئب، ص.213.
(51) نفسه، ص.214.

إنّ تكرار ملفوظات من قبيل «وليّ نعمتي»[52] على لسان الشّخصيّة الرّئيسة (حميدة) عند حديثها عن زوجها التّاجر يشفّ عن إدراك حدود العلاقة بينهما والحفاظ على هذه الحدود؛ فهو مجرّد وليّ نعمة، أي «عامل مساعد»، عُيّن لدور محدّد في البَرنامج السّرديّ من خلال ما قام به من فعل لوصل الشّخصيّة بموضوع «القيمة».

وكما كان الرَّجل عاملًا مساعدًا للشّخصيّة الرّئيسة في «كارما الذئب» في بلوغ هدفها بغير قصدٍ من خلال شخصيتي «نبيل» و«التّاجر النّزوانيّ»، كان هو نفسه عاملًا معارضًا أعاقها عن الاستمرار في حالة «وصل» بموضوع القيمة الذي بلغته؛ فقد مثّلت شخصيّة «فهد» (أبو ماجد) بداية لانتكاس الشّخصيّة الرّئيسة، وتقهقر تقدّمها، وإحساسها بالفوضى والضّياع، وهو حدث دفعها للتّفكير في العودة إلى وطنها، تقول: «كل ما يحصل لي الآن كان داعيا قويًّا لأفكّر جديا في العودة للوطن وسط هذه الفوضى [...]، يجب أن أعود وأسكن بعيدًا عن كل الوجوه التي سببت لي الألم في حياتي»[53]

صحيح أنّ عودة «حميدة» في محكي «كارما الذّئب» إلى وطنها يختلف عن الهزيمة النّفسيّة والواقعيّة التي لحقت بشخصيّتي «زهرة» في «الطّواف»، و«كريمة» في «فيزياء 1» في البلدين اللذين هربتا إليهما، مع ذلك فهي تلخّص نهاية متقاربة؛ إذْ نجدُ الشّخصيّة في الرّوايات الثّلاث لا تحافظ على موضوع «القيمة» الّذي حقّقته بعد مغادرة وطنها إلى وطنٍ آخر (زنجبار، روسيا، لندن)، بل تُضطرّ إلى التّقهقر والتّنازل عمّا بلغته بكثير من التّضحيات، كما تُضطرّ إلى الرّحيل أحيانًا عائدة إلى وطنها كما حدث للشّخصيّة في رواية «كارما الذئب».

(52) نفسه، مثلًا: ص.213، و ص.216.
(53) نفسه، مثلًا: ص.213، و ص.336.

خاتمة:

ننتهي مما سبق بتوضيح النّموذج العامليّ في روايات بدريّة الشّحي وفق الخطاطة الآتية:

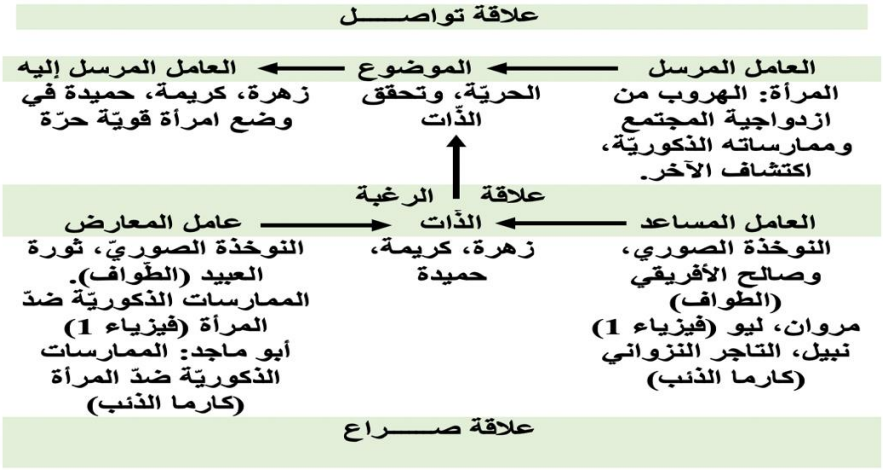

ونخلص إلى رصد نتائج الدّراسة في النّقاط الآتية:

- يمثّل رفض المرأة ازدواجيّة المجتمع وممارساته الذّكوريّة عاملًا مرسلًا دفع الشّخصيّة الأنثويّة للتّمرّد في روايات بدريّة الشّحّي المدروسة.
- مثّلت الشخصيات الذكوريّة في النماذج المدروسة عاملًا مساعدًا لوصل الشّخصيّة الأنثى بموضوع «القيمة» في مراحل من الحكاية، بينما قامت شخصيّات ذكوريّة أُخرى بإعاقة الشّخصيّة عن المحافظة على المكاسب التي حقّقتها.
- تشكّل بنيات المحكيّ في روايات بدريّة الشّحّي كلًّا متضافرًا، ومتكاملًا، يكشف عن ذهنيّة عميقة تنطلق منها عوالم السّرد ومدركات شخصيّاته وأفكارها وأقوالها.
- يتماثل البرنامج السّردي في روايات بدريّة الشّحّي، رغم مضيّ عشر سنوات بين كلّ رواية وأخرى، ما يعني أنّ المؤلِّفة تكتب ضمن مشروع روائيّ متطوّر ما فتئت ترفده عملًا إثر عملٍ لتعميق النّظر في قضايا وأفكار مترابطة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. المصادر (الرّوايات):

الشّحي، بدرية. (1999). الطواف حيث الجمر. (ط.1). المؤسسة العربية للدّراسات والنّشر: بيروت.
الشّحي، بدرية. (2009). فيزياء 1. (ط.1). دار الانتشار: بيروت.
الشّحي، بدرية. (2019). كارما الذئب: فيزياء 2. (ط.1). دار سؤال: بيروت.

2. المراجع العربيّة:

آبيشير، فيرينا. (2019). *النّساء واللغة: التصورات الاجتماعية للاختلاف*، تر. قاسم المقداد. (ط.1). دار نينوى: دمشق.

إينو، آن. (2014). *رهانات السيميائيّة*، تر. رشيد بن مالك. (ط.1). دار التنوير: الجزائر.
بروب، فلادمير. (1996). *مورفولوجيا القصّة*. تر. عبد الكريم حسن، وسميرة بن عمّو. (ط.1). مطبوعات شراع: دمشق.
حمداش، سعاد. (2022). *فلسفة اللغة وسؤال المعنى: بحث في سيميائيات الاستعارة الفنية*. (ط.1). كنوز المعرفة: عمّان.
زرُّوق، محمّد. (ديسمبر 2017) *سرد الهويّة: خطاب الهويّة الرّوائيّ في السّرد النّسائيّ*، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعيّة، جامعة السّلطان قابوس، م.8، ع.3، ص.-ص.71 – 80.
غريماس، أ.ج. (2018). *سيميائيات السرد*، ترجمة وتقديم عبد المجيد نوسي. (ط.1). المركز الثقافي العربي: المغرب.
اللويش، محمد بن لافي. (2010). *جدل الجماليّ والفكريّ: قراءة في نظرية الأنساق المضمرة عند الغذاميّ*. (ط.1). مؤسسة الانتشار العربي: بيروت.
المرابط، عبد الواحد. (2010). *السيمياء العامة وسيمياء الأدب: من أجل تصوّر شامل*. (ط.1). الدار العربية للعلوم ناشرون: بيروت، منشورات الاختلاف: الجزائر، دار الأمان: الرباط.
المسدي، عبد السلام. (2007). *السياسة وسلطة اللغة*. (ط.1). الدار المصرية اللبنانية: القاهرة.
هامون، فيليب (2013). *سيميولوجية الشخصيات الروائية*، تر: سعيد بنگراد، تقديم: عبد الفتاح كيليطو. (ط.1). دار الحوار: سوريا.
يوسف، أحمد. (2004). *سيميائيات التواصل وفعالية الحوار*، منشورات مختبر السيميائيات وتحليل الخطاب. (ط.1). جامعة وهران: الجزائر.
يوسف، أحمد. (2014). السيميائيات التداولية من البنية إلى السياق، ضمن كتاب: *التداوليات وتحليل الخطاب*، إشراف وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، ومنتصر أمين عبد الرحيم. (ط.1). كنوز المعرفة: عمّان.

3. المراجع الإنجليزيّة:

Gajdoš, J. (2007). From Drama Technique to Scenology (Vol. 4). Časopis Disk a edice Disk.p.14&p.-p.43-57.

Wang, Y., & Roberts, C. W. (2005). Actantial Analysis: Greimas's Structural Approach to the Analysis of Self-Narratives. *Narrative Inquiry*, *15*(1), 51-74.